في معنى الاعتبار: أو مِنَ الافتكار إلى الابتكار

الأستاذ الدكتور إدريس مقبول

مركز ابن غازي للأبحاث والدراسات الاستراتيجية، مكناس- المغرب

Makboul-driss@yahoo.fr *Tél:*+212 667 206 796

ملخص:

تنتمي هذه الورقة لدائرة البحث اللساني المعجمي، وتسعى إلى تتبع معنى (الاعتبار) الذي انتبه إليه عدد من العلماء في تاريخ المعرفة الإسلامية، فوسموا به تآليفهم ونسجوه عنوانا لنصوصهم، منطلقين بلا شك من فلسفة للمعنى تستحضر تعدد أبعاده، واتساع دلالاته من الإطار النظري المجرَّد، إلى العمل المبتكَر المسدَّد، وقد قمنا بتتبع معاني الاعتبار كما وردت في المدونة التراثية محاولين استخراج أهم دلالاته التي رأينا أنها تمتد من الافتكار إلى الابتكار.

الكلمات المفتاحية: الاعتبار_ الافتكار_ الابتكار_العبور_ الأثر_ الإبداع.

Abstract : On the Meaning of Consideration: From Reflection to Innovation

This article is related to the lexical linguistics. It aims at tracking down the meaning of (Iʿtibār) (consideration) to which some researchers in the history of Islamic knowledge paid attention. Therefore, they named their writings after it and wove it into titles for their texts. Undoubtedly, that starts from a philosophy of meaning that evokes the multiplicity of its dimensions, and the breadth of its connotations from abstract thought to the innovative and guided work. We have traced the meanings of consideration as they appeared in the heritage corpus, trying to extract its most important connotations that we see extending from thought to innovation.

Keywords: Consideration - Reflection - Innovation - Trace / impact - Creativity

Résumé : Du sens de la considération : de la réflexion à l'innovation

Cet article s'inscrit dans le cadre de la recherche linguistique lexicale. Il vise à retracer le sens du terme iʿtibār (considération), que certains chercheurs dans l'histoire des sciences islamiques ont retenu comme marqueur de réflexion, allant jusqu'à l'utiliser pour intituler leurs œuvres et l'intégrer au titre de leurs textes. Cela repose sans doute sur une philosophie du sens qui évoque la multiplicité de ses dimensions et l'étendue de ses connotations, allant de la pensée abstraite à l'action innovante et orientée.

Nous avons étudié les significations de la considération telles qu'elles apparaissent dans le corpus du patrimoine, en cherchant à en extraire les principales connotations, que nous avons constatées s'étendre de la réflexion à l'innovation.

Mot clef : Considération – Réflexion – Innovation - Trace / impact - Créativité

المقدمة:

الاعتبار في اللغة من (عبر)، فالعين والباء والراء "أصلٌ صحيح واحدٌ يدلُّ على النفوذ والمضيّ في الشئ .يقال :عَبَرت النّهرَ عُبُوراً"، والاعتبار والعِبْرة مقيسانِ من عبري النَّهر؛ لأنّ كلَّ واحدٍ منهما، عِبْرٌ مساوٍ لصاحبه، فذاك عِبْرٌ لهذا، وهذا عِبْرٌ لذاك. فإذا قلت اعتبرت الشَّئَ، فكأنك نظرتَ إلى الشَّئ فجعلتَ ما يَعْنِيك عِبراً لذا..ومن هنا اشتقاقُ الاعتبار .قال اللّه تعالى :﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي اَلْأَبْصارِ﴾، كأنّه قال :انظروا إلى مَنْ فعل ما فَعل فعُوقِب بما عوقب به، فتجنَّبوا مثلَ صنيعهم لئلاَّ ينزل بكم مثلُ ما نَزَل بأولئك. ومن الدَّليل على صِحَّة هذا القياس قولُ الخليل :عَبَّرت الدَّنانيرَ تعبيراً، إذا وزَنْتَها ديناراً ديناراً. قال :والعِبرة: الاعتبارُ بما مضى([1]).

والاعتبار بالشيء الاعتداد به، ومنه قول الفند الزماني:

إذ قَتَلنا بالحِمى سَاداتِكم+++وَأجَرْناكم، وفي ذاك اعتبارُ([2]).

والاعتبار في الأمر: النظر والتأمل فيه، ومنه قول الشاعر الأفوه الأودي:

أصبحَت مِن بَعد لونٍ واحدٍ+++وهْي لَونانِ، وفي ذاك اعتبارُ([3])

وقد يستعمل لإرادة معنى استنباط المطلوب المجهول من دليل معلوم، كما جاء على لسان أحمد بن يوسف الكاتب:" وتعقبوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر"([4]). وهو معنى القياس، قال الطوفي:" وإن شئت قلت :القياس اعتبار، والاعتبار مأمور به"[5].

والاعتبار أيضا معرفة الحقيقة بقواطع الأدلة لا بمظنونها، ومنه قول الكِندي: "وكيف أمكن أن تتصور مثل هذا في عقلك أنه صحيح حتى ترويه وتكتب به إلى مثلي من أهل اليقين، ومن تعرفه بصحة الانتقاد وشدة الاعتبار"([6]).

(1) _ ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط2، 1396هـ، مادة (عبر)

(2) _ شعر الفند الزماني، تحقيق حاتم الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج37، ج4، 1407هـ، 13.

(3) _ ديوان الأفوه الاودي، شرح ونحقيق محمد ألتونجي، بيروت، دار صادر، ط1، 1998م، 72.

(4) _ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة العصر الجاهلي عصر صدر الإسلام، احمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، 1939، 318/3.

(5) _ الطوفي، نجم الدين، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 2005 م، 631.

(6) _ رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق المندي يدعوه بها إلى الإسلام ورسالة عبد المسيح إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية: مطبع كلبرت أور رونكفن جهاباكيا هي، لندن، 1880م، 94.

والمُعتَبِر بكسر الباء المتأمل المتدبّر لأخذ العبرة، قال الأحنف بن قيس: "ثلاث ما أقولهن إلا ليَعتَبِر مُعتَبِر"[7]، والمعتبِر بالحجة المعتد بها في أخذ العبرة، جاء في تفسير الطبري: "وخص بذلك، تعالى ذكره، القوم الذين يؤمنون، لأنهم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها"([8]).

والمعتبَر بفتح الباء الموعظة وتدبر العواقب، قال الشاعر الحارث بن حلزة:

إن السعيد له في غيره عظة++وفي التجارب تحكيم ومعتبَر([9]). وسمي علم التعبير بهذا الاسم لأن صاحبه ينقل من المتخيل المرموز إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع([10]).

وفساد الاعتبار عند أهل الأصول "مخالفة الدليل لنص أو إجماع، من القوادح التي لا نزاع في إبطال الدليل بها .وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود في القوادح:

والخلف للنص أو إجماعٍ دعا ... فساد الاعتبار كلُّ من وعى"[11].

ويمكن أن نقف في الاعتبار على عدد من القيم منها:

الاعتبارتأمل و افتكاروعبورمن الأثرإلى المؤثر:

الافتكار في الشيء: إعمال العقل فيه والتأمل وإدامة النظر وهو الفكرة، قال الفيومي:" الْفِكْرُ بِالْكَسْرِ تَرَدُّدُ الْقَلْبِ بِالنَّظَرِ وَالتَّدَبُّرِ لِطَلَبِ الْمَعَانِي، وَلِي فِي الْأَمْرِ فِكْرٌ أَيْ نَظَرٌ وَرَوِيَّةٌ، وَالْفَكْرُ بِالْفَتْحِ مَصْدَرُ فَكَرْتُ فِي الْأَمْرِ مِنْ بَابِ ضَرَبَ، وَتَفَكَّرْتُ فِيهِ وَأَفْكَرْتُ بِالْأَلِفِ، وَالْفِكْرَةُ اسْمٌ مِنْ الِافْتِكَارِ مِثْلُ الْعِبْرَةِ وَالرِّحْلَةِ مِنْ الِاعْتِبَارِ"[12].

وفي الاعتبار نقف عند قيمة التأمل المفضية إلى العبور من النعمة إلى المنعم ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن العالم المخلوق إلى الخالق، هذا التأمل في الأصل هو معنى (التفكر) بمعنى الحركة الداخلية التي تبث الحياة في العقل والقلب معا، والذي يقابله الفكر المجرد أو الفكر الميت.

وقد ميَّز ابن القيم بين حياة القلب وحياة العقل، وجعل الفكر الصحيح المؤيد بحياة القلب مما يجمل الحرص عليه، لأنه وحده الكفيل بإثبات صفات الكمال للباري سبحانه والانتفاع بها، أما الفكر الذي يصاحبه موت القلب وعمى البصيرة، فإنه فكر منقطع منطفئ، لأنه ينتهي بصاحبه إلى العمى الروحي بنفي صفات الكمال وتعطيلها.

(7) _ الميداني، أبو الفضل، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، 1955م، 220/1.

(8) _ الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، دار الهجرة، ط1، 2001م، 453/9.

(9) _ ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، صنعة: مروان العطية، دار الإمام النووي، دمشق دار الهجرة، دمشق، بيروت، ط1، 1994م، 147.

(10) _خان، صديق حسن، كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن، اعتنى به عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1992، 40/14.

(11)_ الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عطاءات العلم، الرياض، 1393ه، 518/7.

(12) _ الفيومي، أبو العباس، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، ،مادة(فكر) 479/2.

ومما قرره أهل السلوك والتربية أن حياةِ القلب لا تتم إلا بحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار، أي حين ينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل، ومعناه أن حياة القلب بحسن النظر الدائرِ بين تعظيم الخالق. جلَّ جلاله. وحسنِ الاعتبار بمصنوعاته الدالَّة عليه، إذ لا بدَّ من الأمرين، فإنَّه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار لم يحصل له الاستدلال على الصِّفات، وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيمٍ للخالق سبحانه، لم يستفد به إثباتَ الصِّفات، فإذا اجتمع له تعظيمُ الخالق وحسنُ النظر في صُنعه، أثمر له إثباتَ صفات كماله بلا شك، "والاعتبار هو أن يعبُر نظرُه من الأثر إلى المؤثِّر، ومن الصَّنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعةٍ ولطفِ إدراكٍ، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه، قال تعالى: (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (الحشر: ٢)و الاعتبار افتعالٌ من العبور، وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه، ومن النظير إلى نظيره([13]).

وقد وجه القرآن إلى الافتكار في الآثار للوصول إلى المؤثر، وجعل أصغر الآثار وأقربها نفسه، فقال سبحانه(وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (الذاريات:21)، قال أبو بكر بن العربي: "نفسُ الإنسان وذاتُه أقربها إليه نظرًا، وأكثرها عبرة - إن فتَّش - عِبَرًا؛ فإنه لم يكن شيئا مذكورًا، ثم كان نطفة من ماء دافق، ثم تردَّد - كما أخبر الله عنه - في أطوار الاجتنان، حتى أخرجه إلى صفة الإنسان"[14].

وفي الكلام على ظاهر القرآن وباطنه، ميز أهل العلم ممن لا يرون بأسا في هذا التقسيم بين نوعين من الاعتبار، أحدهما قرآني وآخر وجودي، وقالوا بأن "الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الظاهرة للبصائر، إذا صحت على كمال شروطها، فهي على ضربين:

أحدهما :ما يكون أصل انفجاره من القرآن، ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نور البصيرة فيه حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل حسبما بينه أهل التحقق بالسلوك.

والثاني :يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئيها أو كلّيها، ويتبعه الاعتبار في القرآن.

فإن كان الأول، فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال، لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة، على ما يليق بكل واحد من المكلفين، وبحسب التكاليف وأحوالها، لا بإطلاق. وإذا كانت كذلك فالمشي على طريقها مشي على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآنيّ قلما يجده إلا من كان من أهله عملا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده. بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه. ويلزم من ذلك أن يكون معتدا به، لجريانه على مجاريه"([15]).

(13) _ ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق (علي بن محمد العمران، محمد عزير شمس، نبيل بن نصار السندي، محمد أجمل الإصلاحي)، مراجعة سليمان بن عبد الله العمير، محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم ، الرياض، 311/4.

(14) _ ابن العربي، أبو بكر، سراج المريدين في سبيل الدين، تحقيق عبد الله التوراتي، دار التحديث الكتانية، طنجة، ط1، 2017، 463/2.

(15) _القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418ه، 55/1.

الاعتبار في طلب الحلال الجيد ولو قَلَّ وترك الحرام الرديء ولو كثر:

في فلسفة الإسلام، يعتبر "العمل الطيب هو الكيف الذي يمنح قيمة قد لا تتناسب أحيانًا مع الكم"[16]، وفي تفسير قوله تعالى (قُلْ لاَ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)(المائدة:100)، ذكر أبو السعود أن المطلوب الحذر من تحرّي الخبيث وإن كثر ، وفي المقابل يجب إيثار "الطيّب وإن قلّ، فإن مدارَ الاعتبار هو الجُودة والرداءةُ لا الكثرةُ والقِلة، فالمحمودُ القليلُ خيرٌ من المذموم الكثير ،بل كلما كثر الخبيثُ كان أخبثَ (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) راجين أن تنالوا الفلاح"[17].

ولَمَّا قررت الشريعة حدود الحلال والحرام، "كانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْخَبِيثَ لَا يُسَاوِي الطَّيِّبَ وَأَنَّ الْبَوْنَ بَيْنَهُمَا بَعِيدٌ، عَلِمَ السَّامِعُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْمَقْصُودَ اسْتِنْزَالُ فَهْمِهِ إِلَى تَمْيِيزِ الْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ فِي كُلِّ مَا يَلْتَبِسُ فِيهِ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَهَذَا فَتْحٌ لِبَصَائِرِ الْغَافِلِينَ كَيْلَا يَقَعُوا فِي مَهْوَاةِ الِالْتِبَاسِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ ثَمَّةَ خَبِيثًا قَدِ الْتَفَّ فِي لِبَاسِ الْحَسَنِ فَتُمُوِّهَ عَلَى النَّاظِرِينَ، وَلِذَلِكَ قَالَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ. فَكَانَ الْخَبِيثُ الْمَقْصُودُ فِي الْآيَةِ شَيْئًا تَلَبَّسَ بِالْكَثْرَةِ فَرَاقَ فِي أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ لِكَثْرَتِهِ، فَفَتَحَ أَعْيُنَهُمْ لِلتَّأَمُّلِ فِيهِ لِيَعْلَمُوا خُبْثَهُ وَلَا تُعْجِبُهُمْ كَثْرَتُهُ"[18].

وفُسِّر الخبيث والطيب على أنحاء متعددة، فقيل :الخبيث والطيّب: الحلال والحرام.

وقيل :الرديء والجيّد.

وقيل :الكافر والمؤمن.

وقيل :العاصي و المطيع([19]).

قال القرطبي مشيرا إلى اشتمال الطيب لكل المنافع ودخول كافة المحاسن فيه، وشمول الخبيث لكل المضار ودخول كافة المفاسد فيه، وهو الأنسب، لأنه يعرض رؤية القرآن في كليتها لموضوعَي الخير والشر، وما يتصل بهما من اختيارات كمية وكيفية، يقول:" والصحيح أنَّ اللفظ عام في جميع الأمور، متصوَّر في المكاسب والأعمال والنَّاس والمعارف من العلوم وغيرها؛ فالخبيث من هذا كلِّه لا يفلح، ولا ينجب، ولا يُحسن له عاقبة - وإن كَثُرَ - والطيّب - وإن قلَّ - نافع جميل العاقبة"([20])

والاعتبار في انتقاء الحلال وترك الحرام غاية في الأهمية، لأن من لا اعتبار له في تدقيق الاختيارات في الحياة والاصطفاف الصائب والتحيز للخير وأهله، كان في الضفة الأخرى هائما على نفسه في وديان الحياة

([16]) _ دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ط10، 1998م، 301.

(17) _ العمادي، أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 84/3.

(18)_ ابن عاشور، محمد الطاهر، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، 1984 ، 63/7.

(19) _ الغزي، نجم الدين، حسن التنبه لما ورد في التشبه، تحقيق نور الدين طالب وجماعة، دار النوادر، سوريا، ط1، 2011، 177/1.

(20) _ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البرودوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط2، 1964، 327/6.

وشعابها مشغولا، حتى يباغته الأجل، بالتكاثر الذي جاء النهي على الوقوع ضحية له في قوله تعالى (أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) (التكاثر:1).

كما أنه مما يستنبط من فروع اعتبار الحلال ولو قل وترك الحرام ولو كثر، ترسيخ أهمية الكيف في حياة المؤمن، فإن حياته تتميز عن حياة الكافر بكيفها لا بكمها، والمؤمن لا يغتر بالكم مهما اتسع، لأن العبرة بالقيم التي تستضمرها الأشياء، لا الأشياء في ذاتها، وقيمة الحلال لا تعدلها قيمة، لأن مع الحلال تحل البركة، ومع الحرام تمحق البركة.

وقد جاء النهي الشديد عن اعتبار القوة وتقديسها، وعبادة الكثرة والاعتقاد فيها من دون الله، قال جل شأنه: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تغن عنكم شيئا) (التوبة:25)، يذكرهم - عَزَّ وَجَلَّ - منته عليهم وفضله أن النصر والظفر متى كان إنما كان باللَّه، لا بكثرتهم وقوتهم؛ لأنه لو كان على الكثرة لوُكِلوا إليها."([21])

الاعتبار رؤية واستشراف للمآلات والعو اقب:

قال المناوي: "العبرة والاعتبار: الاتعاظ، ويكون بمعنى الاعتداد بالشّيء في ترتيب الحكم، وقال بعضهم :الاعتبار المجاوزة من عدوة دنيا إلى عدوة قصوى، ومن علم أدنى إلى علم أعلى"([22]).

وقال الرّاغب :أصل العبر تجاوز من حال إلى حال، فأمّا العبور فيختصّ بتجاوز الماء.. ومنه عبر النّهر لجانبه حيث يعبر إليه المرء أو منه(..) وقيل عابر سبيل أي المارّ ، وعبَر القوم إذا ماتوا، كأنّهم عبروا قنطرة الدّنيا، فالاعتبار والعبرة أخذ العبرة بالنظر في الخاتمة وعواقب الأمور، ويكون (بالحالة الّتي يتوصّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، قال تعالى :(إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً) (آل عمران:13)، وقال: (فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ) (الحشر:6)، وفي حديث أبي ذرّ: "فما كانت صحف موسى؟ قال :كانت عبرا كلّها"[23] ، والعِبر جمع عِبرة، وهي كالموعظة ممّا يتّعظ به الإنسان فيجتهد ويتوب قبل أن يدركه أجله.

والاعتبار استشراف المآل والعاقبة بأن يرى الإنسان المُوفَّق" الدّنيا للفناء. والعاملين فيها للموت. وعمرانها للخراب. وقيل :الاعتبار اسم من المعتبرة، وهي رؤية فناء الدّنيا كلّها باستعمال النّظر في فناء جزئها"([24]).

والاعتبار بهذا المعنى "يتفق تماما مع الغرض الموجب للعبور، وهو الارتقاء بالمخاطبين إلى العوالم العلوية، وتزكية نفوسهم اهتماما بها وبعثا لها بالحرص على تحصيل أرفع الدرجات"([25]).

(21)_الماتريدي، أبو منصور، تأويلات أهل السنة، تحقيق مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2005. 324/5.

(22) _ المناوي، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1990م، 235.

(23) _ ابن الاثير، مجد الدين، جامع الأصول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، ط1، 1969م، 427/2.

(24) _ الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط1، 1983م، 30

(25) _ ذيب، أحمد، جماليات العبور في القرآن الكريم: دراسة جديدة في جماليات الذكر الحكيم، مركز نماء للبحوث والدراسات، دراسات فكرية/ ع51، 2023، 30.

وقد جعل الغزالي من معرفة التقليد ومعرفة النظر سبيلين في قلب المؤمن للتّوصّل إلى معرفة ثّالثة سماها تفكّرا واعتبارا وتذكّرا ونظرا وتأمّلا وتدبّرا .أمّا التّدبّر والتأمّل والتّفكّر :فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأمّا اسم التذكّر والاعتبار والنّظر؛ فهي مختلفة المعاني، وإن كان أصل المسمّى واحدا"

ومثاله أنّ من مال إلى العاجلة، وآثر الحياة الدّنيا، وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان :أحدهما: أن يسمع من غيره أنّ الآخرة أولى بالإيثار من الدّنيا، فيقلّده، ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرّد قوله، وهذا يسمّى تقليدا ولا يسمّى معرفة .والطّريق الثّاني :أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار، ثمّ يعرف أنّ الآخرة أبقى. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة، وهو أنّ الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقّق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلّا بالمعرفتين السّابقتين.

ومن صُور اعتبار السلف رضي الله عنهم ما روي عن ابن عمر- رضي الله عنهما-: أنّه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة، فيقف على بابها فينادي بصوت حزين: أين أهلك؟ ثمّ يرجع إلى نفسه فيقول :كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ"([26])

ويقال :السعيد من اعتبر بغيره، لأنه ينقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره ([27]). ومما يجمل الاعتبار به ما يقع تحت بصر الإنسان وسمعه، فإنه أقوى ما ينتفع به الإنسان من دروس غيره، ولهذا قالوا:" فاعتبروا بما رأيتم وسمعتم وخذوا الأهلة لأنفسكم ما استطعتم. فإن الزمان، ليس فيه أمان. والدنيا الغرور، لا يتم فيها سرور. والحياة ظل زائل والنعيم لون حائل. والسعيد من نظر لنفسه، قبل حلول رمسه.. وكفر عن ذنبه، قبل لقاء ربه."([28])

وقد جعل القرآن من اعتبار الأبصار طريقا للنجاة لمن عقل ووعى، ففي تفسير قوله تعالى "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ"، قال الشريف المرتضي:" والأولى أن يكون المراد بالأبصار هاهنا العيون، لأن بالعيون ترى هذه العجائب التي عدّدها الله تعالى، ثم يكون الاعتبار والعظة في القلب بها، ويكون من لا موعظة له ولا اعتبار كأنه لا بصر له؛ من حيث لم ينتفع ببصره، فجعل أولي الأبصار هم أولي الاعتبار من حيث انتفع أولو الاعتبار بأبصارهم، وإن لم ينتفع بها من لا اعتبار عنده؛ وهذا كثير في القرآن؛ فإنه تعالى جعل الكفار في مواضع كثيرة صما وبكما وعميا؛ من حيث أشبهوا بإعراضهم عن الفكر والتأمل والاعتبار من لا جوارح له."([29])

(26) _ ابن رجب الحنبلي، أبو الفرج، كتاب ذم قسوة القلب، تحقيق أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط2، 2003م، 269.

([27])_ خان، صديق حسن، كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن، مرجع سابق، 40/14.

(28) _اليازجي، ناصيف، مجمع البحرين، المطبعة الأدبية بيروت، ط4، 1885، 144.

(29) _ العلوي، الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1954، 308/2.

الاعتبار إبداع و ابتكار:

ومن قيم الاعتبار الابتكار، ذلك أن في الاعتبار استخراجا لجديد من قديم، والانتقال من الشيء إلى نظيره ([30])، ومن المعلوم أنه عند رغبتنا في تطوير حلول جديدة ومبتكرة، فإنه من الضروري الاعتبار أو النظر في التجارب السابقة والتعلم منها لتجنب الأخطاء من جهة، وتحديد أفضل الممارسات من جهة ثانية. ولا سبيل إلى الإضافة والابتكار في مجالات المعرفة بتشعبها إلا بمعرفة حدود الإجابات عن كل سؤال في العلم، فشأن كل جهد معرفي أن يضيف إلى صروح العلم لبنة، تتلوها لبنة، وهكذا تتعالى إنشاءات العلم بإضافات المتخصصين الذي يقفون على آخر ما رُسم من الحدود فيوسعونها، فتتسع مع جهودهم مساحة فهمنا للعالم، وتضيق مساحات جهلنا بما يراكمون ويضيفون من معارف جديدة، تنضاف وتنضم إلى سابقاتها فتزيد من وعينا وتسعفنا في إيجاد مخارج لمنغلقات حياتنا.

. وقد جرى العقل المسلم منذ زمن بعيد على اعتماد الاعتبار بهذا المعنى، ذلك أن علماءنا قرروا قاعدة منطقية هي أن الشيء إذا ضُم إلى نظيره أثمر من الفوائد ما يثمره منفردا، لأن الشيء بمنزلة اللقاح، لا يثمر إلا بالاجتماع به"[31]. وذكر تاج الدين السبكي أن من مجامع الفهم في عملية الاستنباط "من إذا ذكرت له المسألة انتقل ذهنه إلى نظيرها، فإن كان حافظا وهي مسطورة، اكتسب باستحضار النقل فيها كيفية أخرى وقوى متجددة تولدت من اجتماع النظيرين لم تكن قبل ذلك، وهذا عمدة الأشباه والنظائر"([32]).

وفي القرآن الكريم يجد القارئ توجيها إليها يحض على الاعتبار بإعمال العقل وكافة الحواس من أجل إدراك جيد للحقيقة، وتصحيح الرؤية القلبية بالمجاهدة، حتى يحصل للإنسان بصفاء البصر والبصيرة الوعي بالأشياء وفهمها وإيجاد حلول لما اعتاص من مشاكلها، وقد نبَّه الحق سبحانه إلى أهمية السمع والبصر والفؤاد وأناط بها جميعا تبعات المسؤولية، (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولا) (الإسراء:36). فحمَّل الإنسان مسؤولية اتباع سبيل العلم، وإيجاد مخارج واجتراح حلول لما يعترضه من أزمات وعراقيل في مسيرة حياته في الدنيا، وتحمُّل مسؤولياته.

و لاشك أن ابتكار الحلول ينطلق من فهم العالم أولا من حولنا، وفهم نظامه، ولهذا كانت نتائج العلوم المتقدمة مرتهنة بتقدم فهمنا للطبيعة وما أجراه الله فيها من نواميس، وقد جاءت الآيات كلها صريحة في الدعوة للنظر والاعتبار والاستدلال والبرهان والبحث والتنقيب والسعي والاكتشاف، "ولاشك أن هذا النمط من الآيات الجامعات والأقوال البينات مما يرشد الناس إلى التفكير من الكون وخبايا الأرض وأسرار الحياة والتطلع على خفايا الوجود. وبهذا ينطلق العقل البشري باحثاً منقباً متطلعاً مما يؤدي إلى الوصول دقائق الحقائق في الوقوف على نظام هذا الكون وموجوداته على تعددها وتباينها وتعقدها."([33])

(30)_ ابن قيم، الجوزية، إعلام الموقعين، 195/1.

(31) _عكيوي، عبد الكريم، نظرية الاعتبار في العلوم الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2008، 99.

(32) _ السيوطي، جلال الدين، الرد على من أخلد إلى الأرض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، 168.

33()_ طوقان، قدري حافظ، العقل في القرآن والحديث، مجلة الرسالة، ع601، ص65.

وليس المراد بالاعتبار، بما هو ابتكار، مطلق الابتكار، فإن الابتكار بما هو إبداع يقع في دائرة الأفعال، و الأفعال محكومة بالإطار الأخلاقي للشريعة فلا يقع في جملتها إلا ما حقق مصالح الخلق ومنافعهم في الدارين، أما ما كان سبب إذايتهم وإلحاق المفاسد بهم، فإن الشريعة تأبى دخوله في الاعتبار. كما يأبى موقف السلبية المتفرجة والانتظارية الكسولة التي لا تنفعل ولا تتحمل مسؤوليتها في إيجاد حلولها الخاصة، فالابتكار بهذا المعنى ليس اختيارا، بل هو واجب الوقت عند النظر، إذ "ليس دورنا الأخلاقي أن نقف متفرجين على ما يحدث أمامنا، أو في داخلنا، ولا أن ننقاد انقيادًا آليًّا للحواس، أو العواطف الجامحة. بل ينبغي على العكس أن نسمو فوق جميع الاعتبارات الباطنة والظاهرة، وأن ننظر من عل إلى كل الحلول الممكنة، لنجري اختيارنا واضحًا جليًّا، وذلك في الواقع هو الجانب الذي يختص بشخص الإنسان، كعامل حر، ومستقل، نسبيًّا."[34]

ختاما: فإن مدار الاعتبار على تحريك داخل الإنسان (عقله وقلبه) بالموازاة مع جسده في اتجاه تحقيق الصلاح الأمثل، ولهذا ترجم القرآن دعوته العقل المسلم للاعتبار عبر توجيه الانتباه لمسألة الافتكار والابتكار، والعبور من سطوح العالم إلى أعماقه، ومن ظواهره إلى قيمه، كمداخل رئيسية لنجاح الكائن في تجربته الحياتية وخروجه منها محققا المجموع المطلوب لمعنى الفوز القرآني، ومنتصرا على العقبات المادية والرمزية وعلى رأسها عقبة نفسه التي بين جنبيه.

المصادر:

_ ابن الأثير، مجد الدين، جامع الأصول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، ط1، 1969م.
_ الأودي، الأفوه، ديوان الأفوه الأودي، شرح وتحقيق محمد ألتونجي، بيروت، دار صادر، ط1، 1998م.
_ الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط1، 1983م.
_خان، صديق حسن، كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن، اعتنى به عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1992.
_ دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ط10، 1998م.
_ ذيب، أحمد، جماليات العبور في القرآن الكريم: دراسة جديدة في جماليات الذكر الحكيم، مركز نماء للبحوث والدراسات، دراسات فكرية/ ع51، 2023.
_ ابن رجب الحنبلي، أبو الفرج، كتاب ذم قسوة القلب، تحقيق أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط2، 2003م.
_ السيوطي، جلال الدين، الرد على من أخلد إلى الأرض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
_ الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عطاءات العلم، الرياض، 1393هـ.
_ صفوت، احمد زكي، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة العصر الجاهلي عصر صدر الإسلام ، المكتبة العلمية، 1939.
_ طوقان، قدري حافظ، العقل في القرآن والحديث، مجلة الرسالة، ع601.

(34) _ دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ط10، 1998م، 614.

_ الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، دار الهجرة، ط1، 2001م.

_ الطوفي، نجم الدين، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 2005 م.

_ ابن عاشور، محمد الطاهر، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، 1984 .

_ابن العربي، أبو بكر، سراج المريدين في سبيل الدين، تحقيق عبد الله التوراتي، دار التحديث الكتانية، طنجة، ط1، 2017.

_عكيوي، عبد الكريم، نظرية الاعتبار في العلوم الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2008.

_ العلوي، الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1954.

_ العمادي، أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

_ الغزي، نجم الدين، حسن التنبه لما ورد في التشبه، تحقيق نور الدين طالب وجماعة، دار النوادر، سوريا، ط1، 2011.

_ ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط2، 1396هـ

_ الفند الزماني ، شعر الفند الزماني، تحقيق حاتم الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج37، ج4، 1407هـ.

_ الفيومي، أبو العباس، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت.

_القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ.

_ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البرودوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط2، 1964.

_ ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق (علي بن محمد العمران، محمد عزير شمس، نبيل بن نصار السندي، محمد أجمل الإصلاحي)، مراجعة سليمان بن عبد الله العمير، محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم ، الرياض.

_ المناوي، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1990م.

_ الميداني، أبو الفضل، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، 1955م.

_ الهاشمي، عبد الله بن إسماعيل، رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق المندي يدعوه بها إلى الإسلام ورسالة عبد المسيح إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية: مطبع كلبرت أور رونكفن جهاباكيا هي، لندن، 1880م.

_ اليشكري، الحارث بن حلزة، ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، صنعة: مروان العطية، دار الإمام النووي، دمشق دار الهجرة، دمشق، بيروت، ط1، 1994م.

_الماتريدي، أبو منصور، تأويلات أهل السنة، تحقيق مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2005.

_اليازجي، ناصيف، مجمع البحرين، المطبعة الأدبية بيروت، ط4، 1885.